نظرة الرحالة العرب إلى الغرب
فى القرن التاسع عشر

إعـــداد
د. عامر جاد الله أبو جبلة
جامعة مؤتة – قسم التاريخ
الأردن

نظرة الرحالة العرب إلى الغرب
فى القرن التاسع عشر

النظرة إلى نظام الحكم :

إن رحلة العـــرب إلى أوروبا فى القرن التاسع عشر ، كانت للتعـــلم أو العلاج ، أو لعقد الاتفاقيات التجـــارية ، أو للقيام بالمهمـــات الرسمية التى كلفتهم بها دولهم ، أو للإقامة كممثلين دبلوماسيين[1] . وكان أول هؤلاء الرحالة الذين رحلوا إلى أوروبا وبخاصـــة إلى فرنســـا رفاعـــة رافع الطهطاوى من مصر الذى ذهب فى رحلة (بعثة تعليمية) إلى باريس عام ١٨٢٦م .

ولقـــد لفت انتباهه كما لفت انتباه وإعجاب غيره من رحالة القرن التاسع عشر «نظـــام الحكم فى أوروبا» فلاحظ رفاعة الطهطاوى أن الحكم هناك للقانون ، وأن الدســـتور هـــو سيد الجميع ، وهو الذى ينظم علاقة الدولة بالمواطنين ، والمواطنين بعضهم ببعض ، وحول هذا الموضوع قال الطهطاوى :

---

(١) أبـــو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربى ، العدد ٦٩ ، آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظـــر فهـــيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت / ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .

« إن ملـــك فرنســـا ليس مطلق التصرف ، وإن السياسة الفرنساوية هى قانون مقـــيد، بحيـــث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضـــى بها أهل الدواوين .. والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة (المشـــروطية) ومعناها فى اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله ولـــيس فى سنة رسوله ﷺ ؛ لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقاد الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهـــم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيه من يشكو ظلما أبدا والعدل أساس العمران »[1] .

وفسّر الطهطاوى المادة الأولى من القانون الفرنسى ، والتى تنص على أن « سائر الفرنســـيين مستوون قدام الشريعة » فقال : معناه: أن سائر من يوجد فى بلاد فرنسا مـــن رفيع ووضيع لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى إن الدعوة الشـــرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لهـــا تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظـــرًا إلى إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنســـاوية وهـــى مـــن الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحاضرة .

ويضـــيف الطهطاوى : « وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عـــندنا العـــدل والإنصـــاف ، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكـــام والقوانـــين بحيـــث لا يجور الحاكم على إنسان ، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة فهذه البلاد حرية » .

---

(١) الطهطـــاوى ، رفاعة ، تخليص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٩٩ .

وأوضح الطهطاوى كذلك ، أن « الفرنساوية مستوون فى الأحكام على اختلافهم فى العظم والمنصب والشرف والغَناء ، وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية » .

ومع ذلك فإن رفاعة رافع الطهطاوى وعلى الرغم من إعجابه بالعدل والحرية والإنصاف فى بلاد باريس إلا أنه يعتبر أنه « إذا وجد العدل فى قطر من الأقطار فهو نسبى إضافى لا عدل كلى حقيقى ، فإنه لا وجود له الآن فى بلدة من البلدان فإنه كالإيمان الكامل والحلال الصرف »[١] .

وهناك أحمد فارس الشدياق فى كتابه « كشف المخبا عن فنون أوروبا » الذى زار بلاد الإنجليز ووصف حرية الناس هناك مقارنة مع البلاد العربية إذ قال : « ومن العجيب أن الإنجليز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا فى رأسه ولا فى عارضه .. والظاهر أن أعظم أسباب الشيب هو الهم والإصر والخوف من ظلم الولاة وذوى السيادة كما هو فى بلادنا وكذا فى كل بلاد يقل فيها الأمن والسلامة فإن أحد الإنجليز إذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش من ملكه أو من أمير أن ينافسا عليه بذلك، بل يعتقد أن غناه أو غنى أمثاله موجب لغنى دولته فيتباهى به ما شاء ولا يخشى أن يتطاول عليه فى حقوقه أحد ممن هو أعلى منه ، فإن الجميع فى الحقوق متساوون »[٢].

ويرجع خير الدين التونسى فى كتابه « أقوم المسالك » أساس التقدم الأوروبى إلى أن « أساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن المتولد منه الأمل ، المتولد منه إتقان العمل المشاهد فى الممالك الأورباوية بالعيان وليس بعده بيان »[٣] ، هذا فضلا

---

(١) الطهطاوى ، رفاعة ، تخليص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

(٢) الشدياق ، أحمد فارس ، كشف المخبا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣هـ ، ص ١٠٧ .

(٣) التونسى ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ١٢٨٤هـ ، ص ٥ .

عن أن تقدم الإفرنج فى المعارف نتج عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية»[١]، ويقول كذلك : « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم فى العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى »[٢] .

وجعل خير الدين التونسى الحرية « منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأوروباوية » وقال : « إن لفظ الحرية يطلق فى عرفهم بإزاء معنيين أحدهما يسمى الحرية الشخصية : وهو إطلاق تصرف الإنسان فى ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه ، وعرضه ، وماله ، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم ، بحيث إن الإنسان لا يخشى هضيمه فى ذاته ولا فى سائر حقوقه ، ولا يحكم عليه بشىء لا تقتضيه قوانين البلاد المستقررة لدى المجالس . وبالجملة ، فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية ، والحرية بهذا المعنى موجودة فى جميع الدول الأوروباوية إلا فى الدولة الباباوية والدولة المسكوبية لأنهما مستبدتان وهما وإن كانتا ذواتى أحكام مقررة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة لأن نفوذها موقوف على إرادة الملك ..

والمعنى الثانى : الحرية السياسية وهى تطلب من الرعايا التداخل فى السياسات الملكية والمباحثة فيه هو الأصلح للمملكة .. ولما كان إعطاء الحرية لسائر الأهالى مظنّة لتشتيت الآراء وحصول الهرج عدل عنه إلى كون الأهالى ينتخبون طائفة من أهل المروءة والمعرفة تسمى عند الأوروباويين بمجلس نواب العامة .. كما أشار خير الدين التونسى إلى حرية التعبير فى طرح الآراء فقال : « وبقى وراء ذلك للعامة شىء آخر يسمى حرية المطبعة (الكتابة) وهو أن لا يُمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح فى الكتب والجرنالات التى تطلع عليها العامة أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرها »[٣] .

---

(١) التونسى ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ١٢٨٤هـ ، ص ٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ — ٧٥ .

ويرى خير الدين التونسى « أن البلدان التى ارتقت إلى أعلى درجات العمران هى التى تأسست بها عروق الحرية والكونستيتوسيون المرادف للتنظيمات السياسية فاجتنى أهلها ثمارها بصرف الهمم إلى مصالح دنياهم ، ومن ثمرات الحرية تمام القدرة على الإدارة المتجربة فإن الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى إخفائها فتعذر عليهم تحريكها وبالجملة ، فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ويستولى على أهلها الفقر والغلاء ويضعف إدراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة »[١] .

وأوضح خير الدين التونسى أسباب اتخاذ الممالك الأوروبية للقوانين والأنظمة التى تحكم سلوك الراعى والرعية إذ قال : « اعلم أن الأمم الأورباوية لما ثبت عندهم بالتجارب إطلاق أيدى الملوك ورجال دولهم بالتصرف فى سياسة المملكة دون قيد مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على أسباب التقدم والتأخر فى الأمم الماضية جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد مع جعل المسؤولية فى إدارة المملكة على الوزراء المباشرين وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم إلى نوعين : أحدهما : قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية والثانى : قوانين حقوق الأهالى فيما بينهم »[٢] .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسى هذا الموضوع كذلك فقال : « وأن تكون الإدارة على قانون معلوم موافق لعادات الأمة وما يقتضيها حالها ، وأن يستوى الشريف والمشروف فى الحقوق الشخصية ، وأن لا يمتاز قسم من الناس بالأشياء الضرورية كالعلوم والأراضى والتجارة وغيرها ... وقال : « فسارعوا (ملوك أوروبا) إلى منح الأهالى بالقوانين والحرية منّة منهم وما حصل فى إحدى الممالك من إجراء القوانين على أى وجه من الوجوه المتقدمة إلا أخذت فى الترقى والثروة لانكفاف الظلم المؤذن بالخراب فتحسنت أحوالها وعمرت أرضها وكثرت صنائعها وانتشرت فيها المعارف وزادت إتقانا واختراعا ، وامتدت تلك المملكة بسطوتها على من

---

(١) التونسى ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ١٢٨٤هـ ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

لم يجارهـا فيما هى عليه ، وسرى العمل على ذلك النحو فى جميع ممالك أوروبا .. بحيـث يصـح أن يقـال إن جميع أوروبا كأنها مملكة واحدة على نمط واحد وغاية الاخـتلاف بينها إنما هو بزيادة الثروة والقوة والحضارة . أما أصول هذه الأشياء فهى موجودة فى الجميع »[1] .

كما تنـاول محمد بيرم التونسى الحيـاة السياسية فى أوروبا بالتفصـيل فقال : «وخلاصـة الكـلام على جميع قسم أوروبا هو أن يقال: إن جميع الممالك – إلا ما اسـتثنى – كـلها ممالك قانونية يعنى أن إدارتها منضبطة فى السياسات بأمور محدودة مكـتوبة يعـلمها الخاص والعام ولا يجوز للمتصرف مجاوزتها، والمباشر لإجرائها هم الـوزراء بـإذن رئـيس الدولـة على اختلاف لقبه من إمبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية، وعدد هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك وصغرها ، ثم يحتسب على الوزراء مجلسان أحدهما: مجلس الأعيان من الأمة واختيار أعضائه بيد صاحب المملكة أو بواسـطة وراثـة تتوارثها بعض العائلات وقد تنتخب الأهالى بعض الأعضاء من بعـض المملكة . والثانى : مجلس النواب أى نواب الأمة ينتخبهم الأهالى لمدة معلومة بغايـة الحـرية فى الاختيار على شروط فى المنتخب والمنتخب تؤول إلى صفات تثبت حـق الغيرة على الوطن ومعرفة مصالحه والأهلية لنصحه ، ومجموع المجلسين يصح أن يسمى مجلس الأمة أو المملكة ، فإذا رأى هذا المجلس فسادا فى تصرف أحد الوزراء أو مجموعهـم وأصـر المعترض على رأيه لزمه الاستعفاء لأنه يتصرف على خلاف إرادة الأمـة . وهنا يكون لصاحب المملكة الحق فى قبول اعتراض المجلس وإبدال المعترض علـيه ، أو يأذن الأمة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للأول ، فإن وقع انتخاب الأمة عـلى إنـاس موافقين للمعترض عليه بقى الأمر على ما هو عليه ، وإن انتخبوا أهل المجلـس الأول أنفسهم أو غيرهم ممن يوافقهم فى الرأى لم يبق لصاحب المملكة حينئذ إلا إبدال الوزراء المعترض عليهم وتوظيف غيرهم ممن يوافق رأى الأمة هذا زيادة عما لهـذا المجلـس من حفظ القوانين ومراعاة مصالح المملكة فى المال والسياسة والأحكام

---

(١) بيرم التونسى ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج فى ١ ، القاهرة ، ١٣١١هـ ، ج١ ، ص ٤٢ – ٤٣ .

وعقـــاب المذنبين من المتوظفين ولو من الوزراء ، غير أن مباشرة العمل ليســـت بيده وإنمـــا هـــى لمن تعود إليه من وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل إدارتهم السياسية »[١] .

أمـــا أحمد زكى فى كتابه السفر إلى المؤتمر ١٨٩٣ فقد وصف طريقة حرية التعبير فى (لورندة : لندن) إذ قال عن مواطنيها : إن كل واحد منهـــم تزين له نفسه الكلام يقـــف فى أى مكـــان ، ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أو لا يجتمعون ويكون رجـــال الشـــرطة بجانبهم غير مبالين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجـــهة ضـــد الدولة أو بالحث على إحراق دور الأغنياء وسلب المخازن الكبيرة ، وما أشبه ذلك فإن حرية المقال فى هذه البلاد وصلت إلى ما هو فوق منتهاها »[٢] .

وهكـــذا يتـــبين أن الرحالة العرب فى القرن التاسع عشر قد اهتموا اهتماما بالغا بتفاصيل الحياة السياسية فى أوروبا من حيث الانتخاب الحر لممثلى الشعوب ، وسيادة القـــانون ، والعدل ، والحرية ببعديها : السياسى ، والشخصى ، وتأكيدهم الواضح عـــلى أن سر التقدم الأوروبى هو ما يتيحه العدل السياسى لتلك الشعوب من مرونة تساعدهم فى الرقى والتقدم فى الصنائع والفنون .

النظرة إلى التقدم :

مـــن أوائل الرحالة العرب الذين تناولوا هذا الموضوع ولاحظوه فى أوروبا ودونوا ملاحظـــاتهم حوله ، وبصورة تفصيلية ، رفاعة رافع الطهطاوى ، فى كتابه « تخليص الإبريـــز » إثر رحلته إلى باريس منذ عام ١٨٢٦م . فلقد آمن رفاعة بالحقائق العلمية وبأنهـــا أساس التقدم الحضارى والسعادة الدنيوية[٣] . وكان المثل الأعلى فى رأيه أن

---

(١) بيرم التونسى ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج فى ١ ، القاهرة ، ١٣١١هـــ ، ج١ ، ص ٥٨ .

(٢) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ط١ ، ١٣١١هـــ ، ص ١١٢ .

(٣) ســـابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٧ .

يأخذ المسلم العلوم الأوروبية ليطور دنياه وأن يحتفظ بإسلامه الذى يهديه إلى الطريق المستقيم والنجاة[(١)] .

وصف رفاعة الطهطاوى التقدم فى باريز ، مبينا أسباب ذلك وأن الأصل فى ذلك تطور الناس أنفسهم إذ قال : « اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات ... وليسوا أسراء التقليد أصلا بـــل يحـــبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القـــراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل إنسان على قدر حاله فليســـت العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة، وسائر العلوم والفـــنون والصـــنائع مدونـــة فى الكتب حتى إن الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره[(٢)] .

وأضـــاف رفاعة قـــوله : والبلاد الإفرنجية مشـــحونة بأنواع المعارف والآداب الـــتى لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران ، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممـــتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظم أدبا وعمرانا والنادر أولى فى العمارات عادة من القرى ومن الضياع والمدن العظمى أولى من سائر مـــا عداها من مدن المملكة . فحينئذ لا عجب إن قيل إن باريز التى هى قاعدة ملك الفرنسيين من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة[(٣)] .

ولفـــت نظر الطهطاوى فى باريز طرقاتها المبلطة بالحجر التى لا تتشرب المياه ، بل تسير مياهها إلى المجارى ثم إلى البالوعات[(٤)] . وذكر أن مطايا هذه المدينة كغيرها من

---

(١) ســـابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٩ .

(٢) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ — ٦٦ .

بلاد فرنسا العربات ، إلا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع ولاتزال تسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع[١] .

ويذكر الطهطاوى أن الذى « يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر (عصره) بمدينة باريس ، أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الفرنج من يضاهى حكماء باريس بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر »[٢] .

وأشار إلى تقدم الزراعة فيها بالإضافة للفنون والعلوم والصنائع فقال : وما من بيت من البيوت الوافرة إلا وبه بستان عظيم الأشجار والخضروات وغيرها ، وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة فإنهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم مثل شجر النخيل[٣] .

وأعطى الطهطاوى وصفا تاما لعمل البريد والتقدم فى خدمة المواطنين الباريسيين فى هذا المجال فقط : « وأما البريد المسمى عند الفرنسيين البُسطة فإنه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها يسهل فيه أخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ويأتى ردها فى أسرع ما يكون وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن ، فإن المكاتيب التى تبعث فى البلد أو العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك لأن سائر نمرة البيوت مكتوب عليها بالرقم عدده المسمى نمرة فيها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه لإنسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوعة فى كل حارة فيأتى الساعى ويأخذه فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى ويأتى رده فى يومه ، ثم إن الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الإمكان فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشىء »[٤] .

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

ومما لفت نظر الطهطاوى من مظاهر التقدم استخدام وسائل الإعلام بمفهومنا الحديث للترويج عن سلعة من السلع أو لأعمال تجارية بصورة عامة . فيذكر أن «من الأمور النافعة فى التجارات الجرنالات ، فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا نظير ذلك »[1] .

ويشير الطهطاوى إلى أن من أسباب رغد عيش وتقدم باريس فى فنونها وصنائعها يرجع إلى أن أهل باريس يمتازون بالنشاط الدائم وعدم التكاسل وقال : « اعلم أن المركوز فى أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة إليه بالكلية ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتوانى ، حتى إن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة » . كما لفت انتباهه وجود نظام الصيرفة الذى يسهل الأعمال التجارية ، وذلك بقوله : « ثم إن أعظم التجارات وأشهرها فى باريس معاملات الصيارفة ، والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو الميرى وصيارفة باريس »[2] .

وينتقد الطهطاوى كسب أهل باريس بأنه قائم على الربا وهنا يقول : « ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا »[3] .

وذكر الطهطاوى أن « من جملة أسباب غناء الفرنساوية ، أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف حتى إنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف »[4] .

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ١٨٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

وفى عام ١٨٦٠ قام أبو جمال محمد الطاهر الفاسى المغربى برحلة إلى الديار الإنجليزية فزار لندن ووصف التقدم فيها عن أهلها : « والحاصل أنهم أتعبوا أنفسهم أولا في إدراك المسائل النظريات ، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولازالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة ، كما أحدثوا البابور وغيره»[١].

ووصف الفاسى مدينة (لندريز) فقال : « وهذه المدينة من المدائن العظام ما رأيت أعظم منها ولا أحظى حتى تكرر على أسماعنا أن طولها ستة أيام ، وعرضها كذلك ، وبها سلطانة الإنجليزى ، وغالب بنائها بالحجر المنحوت ويبطنون الحيطان من داخل بالخشب ويجعلون عليه كاغيدا — مموها ، ويفرشون الأرض ببسط وزرابى جيدة .. » كما أعطى وصفا عاما للعمران بقوله « والديار بهذه المدينة كلها متشابهة إلا ما قل وتتميز بالأعداد على أبوابها .. والعادة أنهم لا يحمون البساتين بالحيطان ، وإنما يحدقونها بقصب من حديد واقف ، وبرأسه شيء شبيه بالحربة »[٢] .

ويرى الفاسى أن كل شيء فى بلاد الإنجليز عجيب فيقول شعرا :

الله أخّر مدتى فتأخرت حتى رأيت فى ذا البلاد عجائبا[٣]

ومن الأشياء والصنائع التى وصفها فى كتاب رحلته وصفه لـ : الفبارك (المصانع) مصانع السلاح ، وفبركة معدة لنشر الخشب ، والأساليب الحديثة عندهم فى الزراعة ، ثم حديثه عن البنك : « وهو معدود من دار السكة عندهم » ، كما وصف دار صنعة الزجاج من كؤوس وغيرها ، كما وصف حسب تعبيره « محل السلك » (التلغراف) المعد لورود الأخبار وتوجيهها[٤] .

---

(١) الفاسى ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسى رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨ — ٣٦ .

كما وصف التقدم العسكرى ، خصوصا الصناعة العسكرية من حيث « أسلحة البنادق ، والمدافع والعربات »[١] .

ويوضح اندهاشه بهذا التقدم بقوله : « والحاصل أنهم – دمّرهم الله – يستعملون أشـياء تدهـش سيما من رآها ربما اختل مزاجه من أجل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بـالله العلى العظيم ، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم حتى أدركوا مُنها مناهم ، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط وفى كل ما يقربهم منها غوابط »[٢] .

وهكذا فإنه قد اهتم بصورة خاصة بمظاهر المدنية الحديثة فى لندن وأبدى استغرابه من الأشياء التى رآها لأنها كانت بعيدة كل البعد عن مألوفه ، ولكنه يتفهمها ويصفها بكـل وضوح ودقة مثلما وصف ميزان الطقس (بارومتر) والتنبؤ بالطقس بناء على ذلك .

ولكـن الفاسـى يفسر تقدم الإنجليز استنادا إلى استخدامهم العقل وبعدهم عن الإيمـان فقال : « العقل على قسمين : ظلمانى ونورانى ، فالظلمانى به يدركون هذه الأشـياء الظلمانـية ، ويـزيدهم ذلك توغلا فى كفرهم ، والنورانى به يدرك المؤمن المسـائل المعنوية كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله ، ومن هذا الباب وصفهم الله فى غير ما آية بعدم العقل وبعدم التفكر وبعدم الفقه »[٣] .

وهـو يقف من الإنجليز وقوتهم العسكرية موقفا واضحا فلم يكن مسرورا لقوتهم وتدريـبهم الـذى رأى فيه تميزا عن الجيش فى بلاد المغرب ، فبعد أن وصف عسكر المديـنة (لـندن) الذى أُحدِث أيام الملكة فكتـوريا ومشاهدته للاسـتعراض الذى قـاموا به أمام الملكة ، وقال : والله يهلك القوم الكافرين ، وينصرنا عليهم ، آمين .

---

(١) الفاسى ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقـيق الأسـتاذ محمد الفاسى رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٥ – ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

وقـــال : «هذا العسكر أباده الله»[١] وفى مقام آخر قال الفاسى : «اللهم احص القوم الكافرين عددا وشتتهم بددا ولا تبق منهم أحدا ، آمين»[٢] .

وقـــال : « قال بعض العلماء : إن النصارى حرموا جنة الأخرى ، فأعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج قسطنطينة »[٣] .

ولقد أعجب أحمد فارس الشدياق بما رآه من تقدم فى أوروبا ، من حيث التمدن والـــبراعة والتفـــنن والـــتفكر فى المصالح المدنية والأسباب المعاشية وانتشار المعارف العمومية وإتقان الصنائع وتعميم الفوائد والمنافع ، وهو يقول: إنه دائم التفكر فى خلو بلادنا عما عندهم من تقدم[٤] .

ورأى الشـــدياق أن من أسباب التقدم فى أوروبا أنه « إذا نبغ أحدهم مثلا فى فن أو صـــنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله ، وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفئ جذوة قريحـــته، بل بالحرى يجد من ينشطه وييســـر له أسباب العلم ، فأما فى بلادنا ما ينبغ أحد فى شىء يبادره حاسدوه بقولهم : « هو مُدّعٍ ، هو حمار ، هو متطفل »[٥] .

ووصـــف خـــير الدين التونسى ، التقدم والتمدن فى أوروبا بقوله : « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم فى العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى، وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة »[٦] وأضاف أن هـــذا الـــتقدم لم يحصـــل إلا بتعاطى المعارف وأنواع الصناعات الراجعة إلى الأصول

---

(١) الفاسى ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقـــيق الأســـتاذ محمد الفاسى رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٤) الشـــدياق ، أحمـــد فـــارس ، الواسطة فى معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط١ ، دار الوحدة، ١٩٧٨ ، ص ١٣ ، وكشف المخبا ، ص ٣ .

(٥) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٤٩ .

(٦) التونسى ، أقوم المسالك ، ص ٩ .

الأربعة : الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية ، وبهذه الأصول قوام السعادة الدنيوية المربية للهمة الإنسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن النظام ونظام الجماعة حتى يكون المحترف مثلا آمنا من اغتصاب شىء من نتائج حرفته أو تعطيله فى بعض أحوال خدمته . ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال إلى أن يعم الاختلال المفضى إلى الاضمحلال »[١] .

وذكر خير الدين التونسى أن من أسباب التقدم « تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية ، وتعاضد الجمعيات المتجرية والإقبال على تعلم الحرف والصنائع ، فبالطرق تُستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات إبان الانتفاع بها .. وبالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتى الأرباح على قدرها ، وتتداول على المال الأيدى المحسنة لتنميته ، وبتعلم الحرف تكتسب الأموال الذريعة عن غير رأس مال »[٢] . ويشير خير الدين التونسى إلى أن من أسباب تقدمهم كذلك « العناية بمن اخترع شيئا لم يسبق إليه أو أجاد فى عمل مفيد »[٣] .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسى فى كتاب « صفوة الاعتبار » موضوع التقدم، أو كما يسميه (التمدن) فى أوروبا ، فقال : « وهاته القارة الآن رمقها السعد بألحاظه .. فيها تمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقا ، وامتد فيها تدريجيا إلى أن بلغت فى هذا العصر إلى الدرجة القصوى من التهذيب والتمدن والمعارف الدنيوية حتى صار لأهلها الوجاهة والنفوذ على جميع أقسام الأرض »[٤] .

ووصف محمد بيرم تقدم الصنائع فى إيطاليا فى العقد السابع من القرن التاسع عشر فقال : « وأما بقية الصنائع فلهم كفاية فى كل الصنائع الضرورية والتحسينية ، لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التى هي من أعظم أسباب الثروة والترقى ، وإن كانوا لازالوا

(١) التونسى ، أقوم المسالك ، ص ٧٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ — ٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .
(٤) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج١ ، ص ٤١ .

مجتهدين فى ترقياتها إلى بلوغها لمثل درجة الأمم البالغة للنهاية فى المعارف ، والتمدن ، والحاصلون عليه الآن هو أن لهم معامل للسلاح بأنواعه ومعامل لإنشاء السفن والبواخر المدرعة . ومعامل للتحليلات الكيماوية وللأعطار وللشمع المتخذ من الشحم لدباغة الجلود ، ولصناعة الورق ، وغزل القطن ، ونسج الجوخ والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ، ومنه النوع الفاخر المسمى بالأمير أو القطيفة ، ومعامل للطراز ، كما أنه يصنع بالأيدى أيضا ، ولهم معامل للزجاج والفخار والعقيق والزهور الصناعية وآلات المرايا المكبرة ، وآلات الموسيقى وخصوصا أوتار بلدنا بل لها صيت كبير فى جميع الجهات ، وفى نابلى وميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات الركوب ، كما أن فى إيطاليا إتقانا لصناعة الأحذية وسائر الأنعلة وخياطة الملبوسات وهم فائقون فى صناعة تخت المرمر ونفسه ، وكذلك صناعة المرجان والصياغة والكهربان »[1] .

وأعطى محمد بيرم وصفا شاملا للطرق المرصوفة فى إيطاليا وأكد على اهتمام بلدانها بالنظافة والتنوير واتساع الطرقات ، وحول الطرق المرصوفة قال : « اعلم أن إيطاليا تكاد أن لا تجد بين بلدتين فيها طريقا غير صناعية بل كلها متصلة ببعضها بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية غير أن الطرق فى البرية لا تنظف ، وأن لها قيمين لإصلاح ما يفسد منها كأن يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى إليه وفيه من آلات الإصلاح ما فيه الكفاية » أما النظافة فى بلدان إيطاليا : فقال : « ولا تجد مزبلة فى البلد لأن خدمة التنظيف يرفعون الأزبال الملقاة من الدور فى آخر الليل ومن طرح الأوساخ من داره فى غير الأوقات المعينة عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث نجد سائر الطرق نظيفة ، وفى الليل منوّرة بالبخار الغازى والفوانيس نظيفة ... ويضيف : وغاية ما هناك هو الفرق بين البلدان فى شدة النظافة ، والتنوير واتساع الطرقات فقط »[2] .

---

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٥٥ — ٥٦ .

ولفت نظر محمد بيرم ما تأخذه الدولة من السكان فى إيطاليا كضرائب وما يترتب على ذلك من تقدم وتحسين البلد ، فقال : « كما أن من الأحوال المتفق عليها أن يكون قسم مما تدفعه الأهالى إلى دولتهم يصرف فى تحسين المملكة ورونقها وإصلاحها كمد الجسور والطرق الحديدية وتنظيف الطرق زيادة على إنشائها ، وكذلك يؤول لتوسيع التجارة والمعارف والفلاحة وغير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين والتحصين »[١] .

وفى حوالى عام ١٨٨٩ ، زار أوروبا محمود عمر الباجورى (من مصر) ، ابتدأ رحلته بإيطاليا ، ثم فرنسا ، ثم إنجلترا ، ثم استوكهولم ، وألمانيا ، ثم العودة إلى مصر . وفى رحلته الشاملة هذه لأهم بلدان أوروبا آنذاك وصف التقدم والحياة وصفا شاملا، حتى إنه كان كثيرا ما يعطى جداول بالأرقام حول بعض مظاهر التقدم فى تلك البلدان. ووصف مدينة تريستة فى إيطاليا فقال : « وفيها مدارس عديدة للملاحة والتجارة وغيرها ، وكتبخانة وانتفخانة ... وفيها التياترو ، والبورصة ، ومحل إنشاء السفن والمستشفى ، والقناة الجالبة لمياه الشرب والأرصفة التى على البحر ، كل ذلك فى غاية الحسن والمتانة »[٢] .

وعند حديث الباجورى عن (سراى ميرمار) فى مدينة تريستة ، قال : « والحيطان فى غاية الإتقان مع جمال النقش وحسن الشكل بما حوى من الرسم العجيب والوضع البديع والألوان الجميلة التى تأخذ بالأبصار « كما أُعجب بحديقة السراى هذا أيما إعجاب فقال : « وبالجملة ، فهى حديقة لم يسمح الدهر بمثلها »[٣] .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن مدينة ميلانو فوصف تقدم صناعاتها ، وبخاصة الحرير ويذكر أن فيها « نور الغاز والنور الكهربائى ، حتى إن محطة سكة الحديد على اتساعها وارتفاع قبتها منورة بفانوس واحد كهربائى ، بحيث يتمكن الإنسان من القراءة على نوره فى الخط الرفيع »[٤] .

---

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٥٩ .

(٢) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١١ — ١٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

والتفت الباجورى إلى المسارح (المراعى) « وترتيب الغيطان » فى مدينة فينيسيا ، وأرجع التقدم فى هذا المجال إلى انتشار الأمن هناك فقال : « كنا نرى فى طريقنا هذا البقر والغنم والمعز والخيل والجاموس الأسود الذى لا يوجد إلا فى بلاد إيطاليا دون غيرها من أوروبا فى المسارح بدون من يحفظها وذلك لعموم الأمن عندهم ، إنما يجعل الإنسان على حدود غيطه حاجزا من الخشب أو الأشجار الصغيرة المشتبكة بالصناعة يمنع خروج الدواب منها ، فعند الصباح يأتى بها صاحبها إلى ذلك الغيط ويقفل عليها بابه ، ويتركها ترعى ، ويذهب لشغل آخر ، ثم يعود إليها آخر النهار ليأخذها إلى بيته »[١] .

وقد تعجب من طرق سكة الحديد النافذة عبر الأنفاق فى الجبال فى أوربا[٢] . فقال : « حين يمر بك الوابور فى سرداب تحت صخور الجبال التى لا يمسكها إلا الله تعالى فى ظلام حالك لولا ما فى الوابور من النور ماذا يكون حالك وإلى أى شىء تتجه أفكارك ، نعم ذلك شىء يحير الألباب ويدهش العقول ويطير النوم من العيون ، ولا ينفع إذ ذاك إلا التسليم لقضاء الملك الحكيم فهو كما يقال داخله مفقود وخارجه مولود ، فهناك لا تسمع إلا دويا هائلا وفرقعة مزعجة ، من سرعة الوابور ، مع طبقات الهواء المخزون فسبحان المنجى من المهالك التى هى أمثال ذلك »[٣] .

وعندما تحدث الباجورى عن مدينة لوسرن السويسرية أعجب بالبيوت الريفية المقامة على بعض الأنهار هناك ، ويصفها « بالبيوت الخلوية »[٤] .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن باريس التى كان قد وصلها فى أول آب ١٨٨٩ ، فذكر ساحاتها وكنائسها ، ومستشفياتها ومدارسها ، وأفاض فى الحديث عن مكتبتها وموجوداتها من الكتب ، فيذكر أنها تشمل على ٩٠٠ ألف مجلد طبع ، و ٨٠ ألف مجلد خط آنذاك ، ويطلق عليها اسم « الكتبخانة »[٥] .

---

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١٧ – ١٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

وقال عن باريس : « باريز هى أول مدن فرنسا تمدنا وتجارة وعلما وصناعة لاسيما الأشياء التى تلزم للنساء والأطفال » ... كما عقد فصلا عن « الانتظام والترتيب فى محلات التجارة » فى باريس . وقال : « وكل شيء قد يكتب عليه ثمنه فلا يحتاج إلى نزاع فى المساومة ، وهكذا فى كل محل مشهور يكون بهذه الصفة المستحسنة ، وكل بضاعة يشتريها الإنسان يمكن توصيلها إلى محله بواسطة عربات محل التجارة المعدة لذلك بدون مقابل ، غير أنه يلزم الإنسان أن يكتب على بضاعته اسمه ونمرة محله ويتركها لهم ، فانظر إلى هذا الاستعداد الغريب والترتيب العجيب والانتظام الكامل ، وفى هذه زيادة عن الترتيب الأمانة بحيث إن أهلها لا يكونون محترسين من الناس الأجانب ، مع كثرتهم ، وقوة ازدحامهم مع بعضهم البعض والتصاقهم بالبضائع »[١] .

وقد أعجب الباجورى ببناء كتبخانة باريس وبوابتها التى تعجب من صنعها كذلك فقال : « أما بناء الكتبخانة ففى غاية الصلابة والمتانة والانتظام وحسن الوضع، وأبوابها من الداخل فى غاية الغرابة بحيث إن الإنسان إذا فتح الباب وتركه ينغلق وحده بقوة فى أول الأمر إلى أن يقرب من تمام الغلق يرجع القهقرى قليلا ، ثم ينغلق بكل هدوء وسكون وذلك بواسطة مكنة فى أعلاه جعلت لذلك فإنه لو ترك الباب ينغلق بدون الآلة المذكورة لحصل للبناء أضرار كثيرة مع طول الزمن من قوة الباب وعظم جرمه ، فسبحان الهادى المدبر الحكيم »[٢] .

وذكر الباجورى بعض مظاهر التقدم الأخرى فى باريس مثل « اللوكاندات » وما تشتمل عليه من حسن التنظيم ، والترتيب والنظافة[٣] ، وكذلك الوابور الكهربائى ومركز التلفون ، الذى وصفه بأنه « يخدم أربعة آلاف فرع لمدينة باريز والحال أن المتولى لتوصيل هذه الفروع أربع نساء ، فتكون كل واحدة توصل ألف فرع ، فانظر إلى تلك المهارة والإتقان والتقدم ، وكنا نراهم حال تأدية العمل فى غاية

---

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ — ٣٥ .

الهدوء والسكينة مع نشاط تام ، فجل من خلق الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم »[١] . كما تكلم عن الآلات الميكانيكية بشتى أنواعها وأغراضها[٢] .

ويرجع الباجورى سبب هذا التقدم عند أهل باريس إلى أن : « أوقاتهم مرتبة فى العمل للمعاش وفى الأكل والشرب والتنزه والاستراحة والنوم ، تراهم لا يضيعون أوقاتهم سدى ولا تذهب أعمالهم أدراج الرياح ، وأساس ذلك التربية وسرعة حركة التجارة ، والصناعة بالتفات الحكام وتيقظهم لذلك فترى هذا رأى العين ، إذا سكنت على شارع من الشوارع العامة ذهاب الناس والعربات والبضائع من كل الجهات على الدوام فى ليل أو نهار حتى الساعة الأخيرة التى من شأنها نوم جميع الناس فيها لها ناس يعملون فالحركة مستمرة والناس مجدون فى أعمالهم »[٣] .

ثم انتقل الباجورى إلى إنجلترا فوصف مدينة (لندرة) وتقدم العلوم فيها وبخاصة فى مدرستها الجامعة ، ومدارسها الأخرى وجمعياتها ، ومستشفياتها (وفيريقاتها) أى صناعاتها الخاصة بالسكر وبناء السفن والأنسجة وصب الفولاذ والصباغة ، ونسيج الصوف ، والقطن ، والدباغة ، ومعامل الزجاج وغيرها »[٤] .

ومن مظاهر التقدم الأخرى التى أشار إليها الباجورى : البنك الإنجليزى ، وما يقدمه من خدمات مصرفية لأهل (لندرة) وغيرها هذا فضلا عن الحديث عن التمدن والتجارة فى مدينة (لندرة) فقال : « متجر مدينة لندرة وحده يساوى خمس تجارة المملكة الإنجليزية كلها وبها جملة من البورصات المهمة وميناها أعظم مينة فى العالم وكذا أرصفتها التى عددها ٧ ، الصادر منها سنويا يساوى ٢٠٠ مليون جنيه ، ويدخل ميناها فى السنة نحو ١٢ ألف سفينة »[٥] .

---

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٤٢ – ٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

وقال الباجورى: إن أول سكة حديد فى أوروبا عموما قد أنشئت كانت فى إنجلترا، ثم ذكر تسلسل البلدان التى استخدمت السكة الحديدية فى بلادها كما يلى : «افتتحت أول سكة حديد فى إنجلترا سنة١٨٢٥م ، وفى بلاد النمسا وفرنسا ١٨٢٨، وفى ألمانيا وبلجيكا ١٨٣٥ ، وفى بلاد الروسيا ١٨٣٨ ، وفى إيطاليا ١٨٣٩ ، وفى بلاد أسبانيا ١٨٤٨ ، ثم ذكر بلاده مصر سنة ١٨٥٦ » ، ثم يعلق على هذا بقوله : «فلو نظرت إلى هذا وجدته دليلا واضحا على تقدم الأمة الإنجليزية خصوصا صناعة الآلات الميكانيكية»[١] .

ثم انتقل الباجورى من إنجلترا إلى هولندا فوصف التجارة والصناعة فى مدينة روتردام وكذلك مدينة ليدن ، ثم أمستردام ، ثم بعض المدن الألمانية التى زارها كذلك مثل كولونيا ، ثم مدينة هامبورغ التى قال عنها وهى أعظم مدن ألمانيا عموما كتبخانتها ٢٠٠ ألف مجلد ، وبها مدارس عليا ووسطى وابتدائية ، لكل الفنون من بحرية وتجارية وغيرها ، وتكلم عنها كميناء تجارى فقال إنها : « أعظم مينات أوروبا البحرية التجارية بعد لندرة ، وليفربول من بريتانيا ، وتجارتها رواج زائد لها علاقة مع كل المدن المهمة فى الأقسام القريبة والبعيدة فى البواخر البحرية »[٢] .

وفى رحلة لأحمد زكى (من مصر) بعنوان : (السفر إلى المؤتمر) ١٨٩٣ ، وصف التقدم فى إيطاليا بقوله : « وبرعوا فى الفنون الظريفة ولا بدع إذا قلت فى هذا المقام إن كل طليانى لابد أن يخلق نابغا بالطبع فى الرسم والتصوير والنقش ، والنحت والتعمير أو التحبير والتحرير أو الموسيقى والأغانى ، ونظم القريض والمعانى ، فقد زرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جليلة وبقايا فنية جميلة أو فوق جميلة مما لا تكاد تضاهيه مجموعة الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد مللت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار فى التسيار مع تيار هذا المعرض »[٣] .

---

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٣٠ .

وأشـــار أحمد زكى إلى مظاهر التقدم الأخرى : « مثل العربات والسكة الحديدية والبوســـتة والـــتلغراف والبواخروالبولـــيس ، وما أشبه ذلك من التنظيمات من أنهم يضـــعون أسمـــاء الشـــوارع على رقع مربعة من الرخام كى لا يتطـــرق إليها البلاء بسرعة »[١] .. كما وصف نظام مكتبة بيزا فى إيطاليا وأعجب بهذا النظام فقال : « ثم زرت المدرســـة الجامعـــية ومكتبـــتها العظـــيمة ورأيت فيها من النظام ما يوجب الإعجـــاب بهـــا .. مثال ذلك أن الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشـــب بمقدار حجمه وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرته وعنوانه إلى أن يرد الكـــتاب إلى محله ، وفى ذلك فائدتان : أولهما — حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع استقامتها واعتدالها . وثانيها — التنبه على أن هذا المكـــان يشـــغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لإعلام من يريد أن يجيل ناظـــره على الكتاب فقط، ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية ، وأخرى لحفظ الكراريس والأجزاء التى تظهر فى أوقات معيـــنة من كتاب واسع كبير حتى لا يتولاها التلف والضياع ، ومتى تمت الكراسات والأجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها »[٢] .

ووصف أحمد زكى كذلك مدينة (لوندرة) أى لندن فى رحلته ، فقال : « حتى إذا وصـــل المحطة (القطار) زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع وكثرة الأرصفة ، وجســـامة المـــبانى وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهـــب بالرشاد ، ثم متى دخل فى شوارعها وسار فى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه »[٣] .

ويـــرى أحمـــد زكـــى أن مـــن جملة أسباب التقدم فى بريطانيا كثرة الشركات والجمعـــيات المنضبطة وأوضح ذلك بقوله : ولكنى أقول إن الشركات والجمعيات ،

---

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٢٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥ — ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ومـــا بينها من المزاحمة الممدوحة ، والمناظر المحمودة هى روح هذه الحركة وأس هذا الارتقـــاء فمهمـــا نظـــر الإنســـان إلى أى عمل من الأعمال رآه فى يد شركة من الشركات، وليس للحكومة دخل فى شيء ما سوى المراقبة العالية التى تجعل الجمهور فى أمـــان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فإن الأمة قائمة بنفسها مكدّة فى طلب المكاسب والمعالى بما يفيدها ، ويرفع شأن دولتها ، من غير أن تتنازل وتمد يدها لإمداد الحكومة ماديا ، أو معونتها معنويا ، حتى إن الإنسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤون العقليات أو المحسوسات ، كيف أن مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخولية والبوليس والجيش ليس فى يد الشركات، نعم، فقـــد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام فى هذه البلاد ، ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى وإضافتها للدولة الإنجليزية على يد شركات تجارية »[١] .

ووصف أحمد زكى بلاد بريطانيا بأنها « بلاد التعاضد على الأعمال والتباعد عن الخمول والإهمال ، ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاقتدار على إنماء المال »[٢] .

ويـــرى أن تقدم الأمة البريطانية يرجع إلى نشاط أفرادها ، فقال : « وذلك لأن أفـــراد الأمـــة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا إلا للعمل والاكتساب ، ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبلغا لا يكاد يتصوره العقل حتى إن بعض البنات فى العائلات الكبيرة تذهـــب للرسم والتصوير أو التطريز والتدبيج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ، ولا تكـــون كـــلا على عواتق أهلها مع ما هم فيه من الثروة والرفاهية ، ومنهن من يؤثرن التغرب فى بلاد الهند واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء فى منازلهن خالـــيات مـــن العمل منغمسات فى البطالة والكسل ، وذلك شأن الشباب أيضا ... وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف ســـائر الأمم ، ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحـــل ولو كان الرجل منهم ابن غنى يملك القنـــاطير المقنطرة ، فلابد له من التكسب بعرق جبينه »[٣] .

---

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

وفى الكتاب المرسوم بـ « الدنيا فى باريس » لأحمد زكى ، يرى ويؤكد على «عظم المدينة» فى أوروبا و « جلالة الحضارة » فيها ، ويرى أن هذا التقدم يجب أن يحرك فى العرب تنشيط الإحساس والشعور بمواكبة التقدم ، ليكون من ورائه عظائم الأعمال[١] .

وهكذا يتبين أن الرحالة العرب قد تنبهوا إلى فهم أسس التقدم الصناعى ، والمعرفى العلمى فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، من حيث سيادة القانون والعدل السياسى والاجتماعى ، هذا فضلا عن مثابرة الفرد الأوروبى وسعيه المتواصل لتحقيق الرقى فى كل مجال من مجالات الحياة وصولا إلى دولة المؤسسات التى تحفظ الأمن والرخاء والرفاهية لجميع أفراد المجتمع وبدون استثناء .

النظرة إلى الحياة الاجتماعية :

من الظواهر العامة التى ميزت كتابات الرحالة العرب فى القرن التاسع عشر عن البلاد الأوروبية ، توسعهم فى الحديث عن مكنونات المجتمعات الغربية من حيث الطبقات فيها ، والدين والعادات الاجتماعية فى اللباس ، والأكل ، كما لفت انتباههم بصورة خاصة المرأة الأوروبية ، ووضعها فى المجتمع ، وهذا منتظر ، لانفتاح المرأة على المجتمع هناك ، ومشاركتها الفاعلة فيه ، وفى مختلف نشاطاته الثقافية والاقتصادية بصورة تختلف كليا عن المرأة فى المشرق آنذاك .

وصف رفاعة الطهطاوى مجتمع باريس بأنه ثلاث طبقات كما يفهم من خلال العمران فيها ، فيقول : « وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت إلى ثلاث مراتب ، المرتبة الأولى : بيت عادى ، والثانية : بيت لأحد من الكبار ، والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها . فالأول : يسمى بيتا ، والثانى : يسمى دارا ، والثالث : يسمى قصرا أو سراية »[٢] .

---

(١) زكى ، أحمد ، الدنيا فى باريس ، ١٩٠٠م ، ص ٢٧٢ .
(٢) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

وعن طبائع « الفرنساوية » يقول الطهطاوى : « ومن طبائع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور خصوصا فى أمر الملبس فإنه لا قرار له أبدا عندهم و لم تقف لهم إلى الآن عادة فى التزيى . ومن طباعهم الطيشان والتلوّن فيتنقل الإنسان منهم من الفرح إلى الحزن وبالعكس ، ومن الجد إلى الهزل وبالعكس ، حتى إن الإنسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة من أمور متضادة ، وهذا كله فى الأمور غير المهمة ، وأما فى الأمور المهمة فآراؤهم فى السياسات لا تتغير كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى إنهم قد يلقون أنفسهم فى المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم »[١] .

ويضيف الطهطاوى « ومن المركوز فى طبعهم حب الريا والسمعة لا الكبر والحقد.. طباعهم الغالبة وفاء العهد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة .. ومن طباعهم الغالبة الصدق .. ويعتنون كثيرا بالمروءة الإنسانية ، ومن خصالهم أيضا صرف المال فى حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فإنهم مسرفون غاية السرف، ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهم سواء كنّ حمّالات أم لا »[٢] .

وعند حديثه عن أمور الأسرة ، والأولاد وتربيتهم فى باريس يشير الطهطاوى إلى أن « أولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا فى الفرنسيين على الإطلاق والعادة أنهم لا يُزجون أولادهم قبل تمام تعلمهم وهذا يكون غالبا فى عشرين إلى خمس وعشرين سنة فقل منهم من كان فى سن العشرين و لم يبلغ درجة التدريس أو تعلم صنعته التى يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن وهذا السن فى الغالب يظهر به براعة الإنسان وحسن طالعه »[٣] .

أما الدين فى باريس فكان له نصيب من الحديث عند رفاعة الطهطاوى إذ قال : «إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨ — ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

دينه ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب » . ويضيف فى هذا الأمر قوله : «إن كثيرا من الفرنساوية خصوصا سكان باريس ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا على ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم من يقيم على دين آبائه يؤمن بالله ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء من العوام والخواص »[١] .

أما من عادات أهل باريز فى الأكل فيذكر الطهطاوى ذلك . ويقول : « وعادة الفرنساوية الأكل فى طباق كالطباق العجمية أو الصينية لا فى آنية النحاس أبدا ، ويضعون على السفرة دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون أن من النظافة أو الشلبنة أن لا يمس الإنسان الشىء بيده ، وكل إنسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق .. وبالجملة فآداب سفرتهم ، وترتيبها عظيم جدا، وابتداء المائدة عندهم الشوربة ، واختتامها الحلويات والفاكهة ، والغالب فى الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفى الغالب خصوصا لأكابر الناس ، يُشرب من النبيذ قدر لا يسكر به أبدا »[٢] .

ووصف الطهطاوى طريقة الأكل ، إذ قال : « فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينته أو يشرب من قدحه أبدا ، يزعمون أن هذا أنظف وأسلم عافية »[٣] .

أما طعامهم ، فلم يعجب الطهطاوى إذ قال : « فطعامهم على الإطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة إلا فى الخوخ »[٤] .

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٣٢ – ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

وكـــان لـــلمرأة نصيب من كلام ووصف الطهطاوى لأهل باريس ، فيذكر أن «عـــادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس ، والنحر ، وما تحته والقفا وما تحته ، واليدين إلى قرب المنكبين »[١] . ويضيف كذلك قوله : « ونساء الفرنساوية بارعات الجمـــال واللطافـــة ، حسان المسايرة ، والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال ، ســـواء الأحرار وغيرهن خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم ويـــوم الاثنين فى البارات والمراقص .. ومما قيل : إن باريس جنة النساء .. وذلك أن النســـاء بها منعمات سواء بمالهن أم بجمالهن ، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء ، عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه ويتره عشيقته »[٢] .

وحول عمل المرأة ، فإن رفاعة الطهطاوى يصف نساء « باريز » بقوله : « فهن كالرجال فى جميع الأمور »[٣] .

ومن الأمور التى انتقـــد فيها رفاعة الطهطاوى المرأة فى باريس والمجتمع الفرنسى مـــا نصه « ومن خصائلهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم .. وعدم غيرة رجالهم فـــيما يكون عند الإسلام من الغيرة .. وبالجملة فهذه المدينة (باريس) كباقى مدن فرنســـا ، وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا ، وديار العلوم البرانية »[٤] .

أمـــا أحمد فارس الشدياق فقد وصف المجتمع الأوروبى فى كتب رحلاته الموسومة بـــ « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » و « الساق على الساق فى ما هو الفارياق » و « كشـــف المخـــبا عن فنون أوروبا » . واللافت للنظر أنه انتقد المجتمع الأوروبى انتقادا شديدا مركزا على مساوئه أكثر من غيره من الرحالة العرب الذين زاروا أوروبا آنذاك وسجلوا ملاحظاتهم عن المجتمع الأوروبى .

---

(١) الطهطاوى ، تخليص الإبريز ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ – ٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

وحـــول الزواج فى المجتمع الإنجليزى ، قال الشدياق منتقدا الغاية التى تدفعهم إلى ذلك : « أليس من العار على الرجال فى هذه الأرض أرض العلوم والصنائع والتمدن والتحضر أنهم لا يتزوجون عن حب بل عن طمع فى زيادة المال ، فإن من كان دخله مثلا مائة دينار فى كل يوم يريد أن يتزوج من دخلها مائة دينار أيضا تماما ، ولو كان تســعة وتسعين لم يصح ولذلك فكثيرا ما ترى شابا جميلا قد تزوج نصف شوهاء ، وهــيهات ، فإن الرجال هنا أكثرهم مصاييف أى لا يتزوجون إلا إذا دخلوا فى حيز الكهول ، فيقضون شبابهم فى السفاح. ومن حد الثلاثين إلى الأربعين فى البحث عمن عندها جدة وغنى، وتبقى الجميلة الفقيرة كاسدة وما عليهم من الإصافة من عار»[1].

وأبرز الشدياق بعض مساوئ مجتمع لندن ، قال : « ألا ترى إلى هؤلاء ، الألوف من البنات اللاتى يجرين فى أسواق لندن ، وجميع المدن العامرة ، بأخلاق من الثياب ، كــيف يــتهافتن عــلى الرائح والغادى رجاء أن ينلن ما يتقوتن به ويتجملن به من الثــياب، ولاســيما هؤلاء النواشئ اللائى لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة ، فهذا لعمرى الاهتجان بعينه فكيف يعيبون علينا هذه فى بلادنا ، وهى مستعملة عندنا على وجه الحلال ، وعندهم بالحرام ، فلو كن مكفيات المؤنة لما فعلن ذلك لأن البنت فى هذا الحد من السن لا تكرع إلى الرجل ، ولا تضيع إلى البغال ، ولاسيما فى البلاد الــباردة ، ولسلم من كيدهن ، وتهافتهن خشعا إلى المال إناس كثيرون جلب عليهم شرههم إليهن مضار كثيرة ، وما عدا ذلك فإن هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة وأهــل الكنيســة يعــنون بتجهيزهن بما يقدرون على الزواج الشرعى بعد تربيتهن وتهذيبهن ، لكن يلدن الأولاد الصباح فيُزيّن المملكة بأثمار أرحامهن »[2] .

وعند كلام الشدياق عن عادات أهل مالطة فى الزواج والأوروبيين عموما قال : « فهــو أن يعاشر الرجل المرأة قبل أن يتزوجها مدة طويلة وربما أقام على ذلك ثلاث

---

(١) الشــدياق ، أحمــد فارس ، الساق على الســاق فى ما هو الفارياق ، قدم له وعلق عليه ، الشيخ نسيب وهيبة الخازن ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) ، ص ٥٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ .

سنين فأكثر .. ولا يخفى أن النساء فى بلاد الإفرنج هن اللواتى يمهرن الرجال ، فالأغنياء من المالطيين يعطون الزوج نحو مائتى ليرة ، والذين هم من الوسط ، يؤثثون له منزله من فرش وكراس وموائد وآلات الطبخ ، وينقدونه شيئا من الدراهم ، والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك، وعلى الزوج أن يهادى حماه بأحذية »، ويضيف : « وأهل مالطة أشد الخلق تهافتا على الزواج فإن الرجل منهم ليتزوج وكسبه فى اليوم قرشان ، وهما لا يشبعانه خبزا وإداما ، وإنما يثق بأن زوجته تساعده على الشغل وتكسب مثله .

ويصف الشدياق أخلاق المرأة المالطية والإنجليزية فيقول : « وآفة نسائهم حسن الخَلق دون حسن الخُلق ، فإن المرأة تجرى وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهمها كون الرجل فقيرا أو جاهلا أو شريرا ، غير أن النساء هنا لا يحترمن أزواجهن ، فكثيرا ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس ، وكلهن إذا تكلمن يرفعن أصواتهن إلى حد يبقى عنده الغريب مبهوتا ، ويرجع كل هذا فى أنهن تخلقن بأخلاق نساء الإنجليز »[١] .

ووصف الشدياق سلوك المرأة فى مالطة عندما تكون حاملا ، إذ قال : « ومتى كانت إحدى نساء مالطة حاملا مشت الخيلاء ، ورفعت بطنها ليراها كل من مرّ بها، ومتى أبصرت ذا شوهة ، رسمت الصليب على بطنها تعوذا من سريان الشوهة إلى الجنين ، وإذا شمّت فى الطريق رائحة طبيخ وتوحّمت عليه بعثت تستهدى منه » . وحول حلى النساء فى مالطة يقول : « أما حلى النساء فالذهب غالبا للأغنياء والفضة للفقراء »[٢] .

وعقد الشدياق فصلا فى كتابه الواسطة عن عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم وحول لباس نساء أهل مالطة قال : « عادة أهل مالطة المتشيعين فى اللباس

---

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ — ٥٥ .

كعادة الإفرنج إلا أن نساءهم يلبسن وشاحا من الحرير الأسود وعلى رؤوسهن غطاء منه أيضا من دون برنيطة . أما النساء فإن من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة وهى معجبة به حتى إذا خرجت منها تأبطته »[١] .

وتكلم الشدياق عن « الموضة » وأثرها فى المجتمعات الأوروبية آنذاك وبخاصة فى الأزياء فيقول : « فأما تغيير الزى عندهم فإنه يقضى بمصاريف حديثة غير ضرورية ، ومنشأ هذا التغيير يكون فى باريس ، فتطبع صورته على أوراق وترسل إلى جميع البلاد، وهذا دأب الناس من أنهم إذا رغبوا عن رذيلة أقبلوا على غيرها »[٢] .

ولقد استغرب الشدياق بعض عادات أهل مالطة والإفرنج فى الأكل ، فى كونهم يطبخون الدم ، ويأكلون المخنوق ، فقال : « وعامة المالطيين يطبخون الدم ويستبقون على أكله ، وكنا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين ، وهم وجميع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية وحيوانات أخرى مما نتقزز نحن منه وقد بلغنى أن من المالطيين من إذا فجع بشىء فجأة أكل فأرا أو ضفدعا لإزالة الدهشة، وأهل مالطة مثل غيرهم من الإفرنج فى كونهم يأكلون المخنوق ، وزادوا عليهم فى أكلهم الميتة من الدجاج ونحوها »[٣] .

ووصف الشدياق أهل مالطة عندما يكونون ضيوفا على غيرهم ، إذ قال : « وإذا دعوت أحدا منهم إلى مأدبة لم يكن منه خلال التهامه ما بين يديه إلا الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل ، وعلى ذلك قولى :

لئامٌ إذا زرتُهم فى بيوتهم ... كرامٌ إذا زاروكَ ما أمكن اللّحسُ

ولو وَسِعت أفواهُهم غيرَ ما بها ... لكان لكلٍّ بين أنيابه فاسُ

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئا فلاتزال رائحة أفواههم منتشرة »[٤] .

---

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٣ ، وانظر : فهيم ، أدب الرحلات ، ص ٢٠٠ .

(٢) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

انتقد الشدياق أهل القرى فى كل من مالطة ، ولندن ، لبعض عاداتهم الغريبة فى نظره ولجهلهم ، فقال عن رجال مالطة : « أما أهل القرى فإن الرجال منهم يثقبون آذانهم ويتقرطون بأقراط من الذهب ويرخون سوالف مجعدة من أفوادهم .. وهاتان صفتان من صفات الإناث ، ويلبسون طرابيش مختلفة الألوان مسدلة على أكاتفهم ، ويمشون حفاة ، وجميع الأعيان فى مالطة من دون أردية أدبارهم ، خلافا لعادة الإفرنج »[١] .

أما وصف الشدياق لمجتمع الفلاحين فى بلاد الإنجليز بالجهل وبعدهم عن العلم فكان ذلك ما نصه : « ومن أين يأتيهم العلم وهم ملازمون للكد والتربح ، وليس عندهم مدارس ، وقد كنت أظن أنهم جميعا يحسنون القراءة والكتابة ، فإذا هم لا يحسنون النطق بلغتهم ، فإنى أقرأ فى الكتاب شيئا وأسمعه منهم مخالفا لحقيقة استعماله، وناهيك أن أكثرهم لا يعرف اسم بلادنا ولا جنسنا ، وقد قيل لأحدهم مرة أن الملك أمر بتسفير خيل فى سفن لحرب العدو ، فقال : « إنى أعجب كيف يقاتل الناس فى البحر على الخيل . وكأنى بهم لجهلهم يحسبون أن سكان الأرض بأسرهم دونهم ، أو يظنون أن الرجال فى غير البلاد يبيعون نساءهم أو يأكلونهن أكلا ، أو أنهم يتقوتون بالجذور والبقول »[٢] .

وذكر الشدياق أن مجتمع لندن من الناس لا يتزاورون ، وأن الجار لا يكاد يعرف جاره ، فقال : « ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض ، وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون فى التاسعة ويقومون صباحا فى الرابعة ، كل ذلك حتى يأكلوا الفقع ، ويشربوا الفقاع أو ربما أقام الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن »[٣] .

وأنكر الشدياق على المجتمع الإنجليزى بعض الأمور منها : « ومن منكر عاداتهم التى لا يمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع سكان أوروبا قد خالفوهم فيها

---

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) الشدياق ، الساق ، ص ٥٩٦ .

(٣) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١١٩ — ١٣٠ .

حلقهـــم لحاهم وشواربهم حتى إن عساكرهم لم تتحلّ بها .. فليت شعرى كيف يرى وجـــه الجـــنـــدى محفوفًا منتوفًا كوجه المرأة ثم ليت شـــعرى أى حُسن للشاب من الشوارب ، وأى حلية وفضل وكمال للشيخ أكثر من اللحية ؟

لعمـــرى أن الشيخ بلا لحية وشوارب ، كالقرد أشبه بالقرد منه بالإنسان ، وأن الشـــاب بلا شوارب أشبه بالأنثى أو الخنثى منه بالرجل ، فإنها من علامات الرجولية ومما خلقه الله من المحاسن الطبيعية »[١] .

وأنكـــر الشدياق على الإنجليز تربية أولادهم من حيث احترام الأولاد لوالديهم ، واحـــترام الشيخوخة فى تلك البلاد . فقال : « ومن طبعهم أن لا يحترموا الشيخوخة مـــن حيث هى شيخوخة ، ولا يهاب الأولاد والديهم كما يهابون عندنا ، ولا يحن الوالدون أيضا على أولادهم كما عندنا ، ولذلك يقع كثيرا أن الأب يقتل أباه والولد يقـــتل والده وأمه ، وقد يحدث عندهم مضاجعة الأب ابنته ، ولكن لم يبلغنى أن ولدا ضـــاجع أمـــه »[٢] . وفى هذا إشارة واضحة إلى تفكك الأسرة وانحرافها كما يشير الشدياق .

وأشار الشدياق إلى بعض مظاهر الفساد والانحراف الأخرى فى الأسرة الإنجليزية فقـــال : « وفى المـــدن الجامعة قد تتواطأ الأم وابنتها أو الأخت وأختها على الفحش والفســـاد » . ويضـــيف قوله : « فأما ما يحدث فى بلاد الإنجليز من تسميم الأزواج أزواجهن والوالدين أولادهم وقتلهم ، وبالعكس ، ومن الانتحار ، وهو قتل الإنسان نفسه ، فأمر يهول وشرحه يطول »[٣] .

ووصف الشدياق دُور اللهو ، والغناء فى كل مكان فى لندن ، وباريس ، فقال : « فأما مواضع الرقص فى لندن ، تفتتح كل ليلة ، وفى باريس ثلاث مرات فى الجمعة لا غـــير ، وفى أكثر شوارع لندن تسمع الغناء من جوارٍ حسان ، وآلات الطرب ليلا ونهـــارا من دون غرامة ولا كلفة وليس كذلك فى باريس إلا ما ندر ... أما غناؤهم

---

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ — ١٣٨ .

فلا يمكن لذى ذوق أن يطرب به ، وقد سمعت أغانى الفرنساوية وسائر الإفرنج فوجدت كثيرا منها ما يشجى لأن فيها ترجيعا ومدا ، فأما أغانى الإنجليز غير التى يتلقونها من الصلبانيين والقرنساويين فى الملاهى فكلها نبر ودرج »[١] .

أما محمد بيرم الخامس التونسى فى كتابه « صفوة الاعتبار » فقد وصف كذلك جانبا آخر من حياة المرأة الأوروبية وبخاصة فى إيطاليا من حيث عملها ونشاطها وانخراطها فى الحياة الاجتماعية، وانتقد سلوك المرأة الإيطالية فقال ما نصه : « والنسوة يخرجن مكشوفات الوجوه ويتعاطين من الأشغال مثل الرجال ، إلا الأشغال الشاقة ، والتعاليم للعلوم العالية ويصاحبن الأجانب عن قرابتهن مثل الرجال ويقول : إن لكل شىء سببا فرؤية الذات والوجه مكشوفا ، ثم المكالمة ، ثم المداعبة ، ثم الرقص فى حالة شرب الخمر والطرب ثم المخاصرة كلها أسباب تدعو إلى الاتفاق طبعا إلى ما وراءها بلا شك وإثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم أن البكارة هى التى لم تتزوج صاحبتها من غير نظر إلى حقيقتها الأصلية . وهو يعلق على هذه بقوله :

« فكل بلاد حافظت على ذلك (حجاب المرأة وعدم خروجها) قلت فيها الفاحشة حتى كادت أن لا تقع ، وكل بلاد تساهلت فى خروج النساء مكشوفات الوجوه بالبراقع الصفيقة وغض النظر عن مكالمة النسوة للرجال ، والمزاحمة فى الأسواق، والمجامع فشت فيها الفاحشة ، واتخذ رجالها هجيراء مسارهم التكلم بوقائعهم مع النساء سواء كانت بلدة إسلامية أم إفرنجية »[٢] .

وتعرض محمد بيرم الخامس التونسي إلى قضية الحياء عند المرأة فى المجتمع الإيطالى، فقال : « وليس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها ، بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها ، وترقص مع الرجال أمامهم، هذا فى البنات ، فكيف بالبنين ، وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء

---

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١١٩ ، وانظر : بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٤ ، ص ٥٦ .

(٢) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٤٦ — ٤٧ .

فترى أكبر الأعيان يحتفل فى داره بدعوة عامة وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغنى فى ذلك الملأ وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها ، ولا تأثيم من ذلك بل يرونه إكراما بحيث إن المسلم الغيور يتفطر مما يرى»[١] .

ووصف محمد بيرم سكان إيطاليا ونشاطهم اليومى بصورة عامة، فقال: « وسكان إيطاليا هم بيض أقوياء مدنهم أكثر أهاليها مهذبون » ، وأما ذوو الترف والأحكام فإنهم يطلبون السهر ويفيقون من نومهم مؤخرا ولا يبتدئون الأشغال إلا قبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال ، وكثيرا ما يدعون الأحباء بعضهم للبعض للسمر والرقص فى منازلهم وتارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك وتارة يقتصرون على تقديم فواكه ، وحلويات ، وخمور »[٢] .

ووصف محمد بيرم كذلك ملابس أهل إيطاليا فقال : « ثم أهل البلد على قسمين.. الأول : الأعيان والوافدون وكلاهما لباسهم مثل لباس الأوروباويين . والثانى: بقية الأهالى ومثلهم بقية سكان البوادى والقرى فى الجزيرة يلبسون جلود الغنم ، بصوفها . فالصوف مما يلى البدن ، والجلد من أعلى ، وهيئة اللبس هى صدرية ، ومنتان ، وسراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة مربوطة ، والنعال خشنة ذات مسامير كبيرة ، وعلى رؤوسهم عرارق من الصوف أو قلانس من الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتافهم ، والنسوة يلبسن قريبا من نسوة أوروبا لكن على شكل غير نضر ، وفى أرجل أغلبهن قباقب من خشب »[٣] .

أما الأكل فى إيطاليا فذكر محمد بيرم التونسى ذلك فقال : « والأكل رخيص هناك » ولفت انتباهه هناك وبخاصة فى المطاعم أن هناك « بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها ألوان الطعام الحاضر لتلك الأكلة حتى تأخذ مما تشتهيه » . ثم قال : «كل صحن حوله ملعقة وشوكة وسكين . وبعد الفراغ من كل لون يبدل

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٤٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٦ .
(٣) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٤ – ٥ .

الصحـــن والسكين والملعقة بغيرها نظيفة ... وفى وســـط المائدة أوانٍ بالزهور بحيث إنـــه فى غايـــة المنظر الحســـن والنظافة ... وطعامهم له أنواع شـــتى أحسنها أنواع المشوى ... ولهم كتب مؤلفة فى تركيب الأكل والطبيخ »[١] .

أمـــا محمـــد عمر الباجورى الذى طاف أوروبا فى عام ١٨٨٩ فقد أعطى صورة مشـــرقة للحياة الاجتماعية فى أوروبا ، القائمة على الاستقرار والأمن لعموم الناس مما يســـاعدهم عـــلى التقدم والحفاظ على ممتلكاتهم وأعطى الباجورى مثالا على ذلك القرى التى هى خارج مدينة فينيسيا بإيطاليا فقال : « وكنا نرى القرية الصغيرة وسط المزارع مؤلفة من نحو ١٠ أبيات فسألنا أهل تلك البلاد : أفلا يكون صغر القرية سببا لسطو اللصوص عليها فقيل لنا إنه لا يوجد فى القرى لصوص بل ذلك يكون فى المدن لســـرقة النقدية والمصاغ مثلا ، وعلى الغالب لا يتبعون إلا الغريب ، وأما الحيوان فلا يُســـرق فكان هذا القول فيه لنـــا فائدتان .. الأولى : أننا عرفنا إنه لا يوجـــد سطو فى القـــــرى الثانـــية : أنـــنا أخذنا حذرنا فى المدن من اللصوص حيث إننا أغراب ظاهرون لكل الناس »[٢] .

ووصـــف الـــباجورى « نساء باريز »كغيره من الرحالة ، فقال : « نساء باريز خصوصا وأوروبا عموما فى المعارف كالرجال فيشاركنهم فى علوم كثيرة كالجغرافيا والـــتاريخ والهندســـة والحساب والكتابة والقراءة والفلسفة إلى غير ذلك .. وأما فى الأعمـــال فـــيزدن على الرجال فترى الواحدة منهن ترأس محلا (كما يرأس الرجل) كقهـــوة أو حمام أو لوكاندة أو محل تجارة وتدبر أمره على أحسن ما يكون ، وتنفرد المرأة بتدبير المنـــزل وترتيبه ، وتربية الأولاد تربية تناسب حال الزمان والمكان وتعمل بيدها ما لا يعمله الرجل كخياطة وطرازة وتنتلا وركامو وغير ذلك »[٣] .

---

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج٣ ، ص ٥ ، ٥٩ .

(٢) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ .

وقال الباجورى : « كل ما ذكرناه فى نساء باريز ، ورجالها يعتبر عاما فى نساء أهل أوروبا بأجمعهم ، بحيث لا يتميز فيهم ناس عن آخرين فكان مناديا جمعهم ونادى عليهم بالاتحاد والمساواة فى معرفة الآداب العمومية والقراءة والكتابة والدأب فى الأعمال والجهد فى تحصيل المعاش بدون فتور ولا كسل ، وأن لا يقتصر واحد منهم على معرفة صناعة واحدة بل لابد له من صناعات بحيث لو عجز عن صنعة لسبب ما يمكنه أن يستعمل الأخرى فى معيشته ... ومن طباعهم الولوع برؤية الأشياء والبحث عن أسبابها واعتبار قيمة العلوم والفنون لما علموا أن التقدم والسعادة لا يكونان إلا بهما مع لطف المعاشرة ولين الجانب وحسن المعاملة ورعاية الحقوق ونبذ الجور ، وإبعاد الشر وعدم الكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة فى المعاملات .. غالبا هذه أوصاف أهل أوروبا نساء ورجالا »[1] .

أما ملابس النساء فقال الباجورى : « وأما ملابسهن فهى مقبولة مناسبة لأحوال بلادهن من البرد مع كونها لا تخلو من الزينة والزخرفة والإتقان وحسن الشكل » .

كما وصف الجمال عندهن بقوله : « وأما فى الجمال فعلى الغالب لهن فيه درجة مناسبة ومن لم تكن جميلة بخلقتها تصنّعن جمالا فلا تخرج من بيتها إلا أن بعد تعمل فى نفسها عملا بقدر إمكانها تظن أنها بعد ذلك تعجب الرجال حتى لو كانت عجوزا، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر »[2] .

وأشار الباجورى إلى جملة من عاداتهن ، وطبائعهن ، ودرجة عفتهن ، فقال : «ومن عادتهن كشف الوجه ، والرقبة ، والكفين ، فيتمكن الإنسان بذلك من معرفة الجميلة من غيرها ، وأما طبائعهن ففيها رقة ولطف وبشاشة لا سيما للغريب ، متى عرفته الواحدة لا تكاد تنساه ، ولا تفارقه وتعمل له من المساعدة كل ما قدرت عليه... وأما عفتهن فتناسب خلطة النساء بالرجال فى الخارج والداخل ورقة طباعهن مع وجود الميل الغريزى والشهوى الطبيعية فى الجنسين عند اجتماعهما فكثيرا ما يعشق الرجل امرأة ، ويهجر زوجته من أجلها فقد ثبت فى الإحصائيات التى

(١) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

عملت عندهم أن عدد النساء المهجورات من أزواجهن خمسة وتسعون بالمئة ، وعدد الـــزناة واحد وسبعون بالمئة ، فلا شك أن مثل هذه الأحوال مما يوجب الفساد بكثرة خصوصا وعندهم الزواج نوعان : زواج شـــرعى ، وزواج مدنى . أما الأول : فهو مـــا حصل رسميًّا فى الكنيسة أو الحكومة بعلم الناس ، وأما الثانى : فهو باتفاق الرجل مـــع امرأة خالية من الأزواج على أنها تعيش معه ولا تذهب إلى غيره ، وأما درجتهن عـــند الـــرجال فهـــى فى المترلة الأولى والدرجة القصوى ، فلهن من الاعتبار ما لا يساويهن فيه الرجال ، فترى الواحد إذا قابل امرأة مع زوجها أو أبيها ، لابد أن يسلم عليها أولا ثم على الرجال ثانيا ، وإن فعل غير ذلك عدوه غير متمدن »[١] .

أمـــا الأكـــل فقد وصفه الباجورى كغيره من الرحالة ، فركز أساسا على « أن الأكل عندهم لا يكون بالأيدى مباشرة بل بواسطة الشوكة والسكين والملعقة ، ولذا تراهم لا يغسلون أيديهم من الأكل »[٢] .

وتعـــرض الـــباجورى إلى وصف أخلاق أهل مدينة (استوقهو لم) ومملكة السويد فأشـــاد بهم أيما إشادة فقال : « أخلاق أهل مملكة السويد عموما ومدينة استوقهو لم خصوصـــا فى غايـــة الاعـــتدال ، ومعـــرفة مقادير الناس وإعطاء كل ما يليق به من التشريف والاعتبار والإكرام ، وعندهم الغرباء فى مترلة عالية ، ودرجة رفيعة ، وأهمية كـــبرى فـــتراهم يعطفـــون علـــيهم عطف الأهل على أهليهم من حسن المعاشرة ، ويوافقونهـــم كل الموافقة حتى يكاد الإنسان ينسى أهله بما يراه منهم من جميل الشيم وحســـن العادات ، ولهم مروءة واهتمام بهم كما يهتمون بأنفسهم ، ومن أخلاقهم العالـــية ، وأوصافهم المقبولة الأمانة التى لا يساويهم فيها أحد تقريبا ، بل هى عندهم فى رتبة لا تضاهى ، ومكانة لا تسامى »[٣] .

---

(١) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

أما على بن سالم الوردانى التونسى الذى زار إسبانيا فى أيلول من عام ١٨٨٧م ، فوصف كرم وبخل أهالى إسبانيا إذ قال : « إن أهالى جنوب إسبانيا كغرناطة وبلنسيه وغيرهـــا إذا دخـــل عليهم الضيف وهم يأكلون يعرضونه إلى الطعام كعادات العرب بخلاف سكان شمال إسبانيا فإنهم عاملون بقول الشاعر :

قـــومٌ إذا أكلوا أخفُـــوا كلامَهم واستوثقوا برِتاج الباب والدارِ[1] .

كمـــا وصف على الوردانى التونسى مجتمع مدينة مدريد وصفا طيبا منتقدا سلوك بعـــض شـــرائحه الفقـــيرة إذ قال : أما أهاليها فعلى غاية من اللطف والبشاشة مع الأجانـــب إلا أن الفقراء فيها كثيرون جدا وإذا وجدوا أجنبيا أحاطوا به وربما منعوه مـــن المـــرور ، وحالتهم سيئة جدا ومن الغريب أن الأوروباويين يعيبون علينا لوجود السُّؤَّال فى بلادنا والشحاذون عندهم أشد نكبة ، وأبرد قلبا مما هم عليه عندنا »[2] .

وأبـــدى على بن سالم الوردانى التونسى استغرابه من سلوك النساء العاملات فى البـــيوت بعد إتمامهن أعمالهن فى إسبانيا إذ قال : « إن النساء المستخدمات بعد إتمام أشـــغالهن يخـــرجن من البيوت فيقفن عند أبوابها يستعرضن بأنفسهن للمارين . فإذا راودهن القاصد اتفقن معه وذهبن به إلى حيث الهوى والموبقات وأكثر ما تكون هذه الحالة أمام دور الأغنياء والأكابر ولا حرج عليهن فى ذلك مطلقا »[3] .

وتـــناول أحمد زكى فى كتاب رحلته الموسوم بـــ (السفر إلى المؤتمر) ١٨٩٣م جملة من هذه المواضيع فقد وصف متناقضات عادات المجتمع الإنجليزى فى (لوندرة) (أى لندن) فقال: « وفى يوم الأحد يكثر السكر والسرقة أيضا لأن الإنجليز لا يعرفون الوسط فإن بلادهم بلاد التناقض جمعت الأطراف ، فإما التناهى فى الغنى وإما التناهى فى الفقر ، وإما التناهى فى الفضيلة والمعارف ، وإما التناهى فى الرذيلة والفجور، وإما

---

(١) عـــلى بن ســـالم الوردانى التونسى، الرحلة الأندلسية (١٩ سبتمبر ١٨٨٧ م) تحقيـــق ودراســـة عـــبد الحكيم القفصى ، مجـــلة أوراق عدد ٥ - ٦ ، مدريـــد ، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ (ص ١١٥ - ١٣٠) ، ص ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

التناهى فى العمل وإما التناهى فى الكسل ، إلى غير ذلك من الأطراف حتى إن المدينة إما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمرة (فى يوم الأحد) وهكذا »[١] .

وعلق أحمد زكى على الملابس الأوروبية ، ويرى عدم ملاءمتها لنا فى بلاد الشرق، هذا فضلا عن المساوئ التى تترتب على اتخاذ هذه الملابس فى بلادنا مثل «إماتة كثير من صنائعنا وصناعنا ، وإحياء صناعات الإفرنج السريعة العطب ، ومساعدة التجارة الأجنبية على استنزاف ما بقى لنا من قليل الثروة»[٢] .

أما المرأة فى باريس فلأحمد زكى فيها رأى آخر ، فقال : «أرسَلوا إلينا مثلا تناقلته الأفواه وهو (إن ما تريده المرأة يريده الله) لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والأمر المطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لا ترضاه زوجته ، ومتى أقدمت هى على عمل أو تعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضى به والإقرار بوجوبه ، وأن لا مندوحة عنه وهم يبالغون فى إكرام المرأة والتأدب فى حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف ، وفى تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف (حتى لا يقدم إليها إلا فحول الرجال) ، ولذلك نبغ منهن الكاتبات والمحررات والشاعرات والخطيبات والمصورات والمشخصات والمحاميات والطبيبات والمخترعات فى كل أمر ذى بال أو غير ذى بال»[٣] .

ويعطى أحمد زكى رأيه فى حرية المرأة فى باريز فيقول : « إنى من أهل المذهب القائل بعدم إطلاق الحرية للنساء إلى هذه الدرجة التى تجاوزت الاعتدال إلى التطرف فى الإفراط ، فإن المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات ، والتفانى فى الملاذ ، فالواجب أن تكون الحرية لهن كالملح فى

---

(١) زكى ، السفر إلى المؤتمر ، ص ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ — ٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

الطعام، فإن التعليم ليس بقادر أن يترع منهن هذه الأميال ، وإن نزع منهن الخرافات التى يبثثنها فى عقول الأطفال[١] .

كما تكلم عن خيانة المرأة الأوروبية لزوجها فى كل من : ألمانيا ، وبلجيكا ، وإنجلترا ، والنمسا ، والدنمارك ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وإسبانيا ، واليونان ، وقال : «فإذا سلمنا بما استنتجه الأستاذ الألمانى كستنر (الذى نشر دراسته تلك عن الخيانة الزوجية) رأينا أن فى التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة فى صيانة الأعراض »[٢].

الخلاصة :

إن نظرة الرحالة العرب إلى الغرب فى القرن التاسع عشر ، أظهرت أن هؤلاء الرحالة قد سبروا أغوار جميع مجالات الحياة فى أوروبا من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ففى الجوانب السياسية : أكد هؤلاء الرحالة على بعض أسباب التقدم فى أوروبا بعامة يرجع إلى سيادة القانون الذى يضبط سلوك الحاكم والمحكوم ، هذا فضلا عن حرية التعبير ، والحريات الشخصية ، القائمة كلها على العدل والإنصاف . وفى الجوانب الاقتصادية وتقدمها : ركز هؤلاء الرحالة على أن تقدم العلوم النظرية والعلمية، كان وراءها العقل الأوروبى المنفتح، والمدقق فى كل شىء ، الذى لم يكن أسير التقليد، بل حاول معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه ، ولذلك وصفوا كل ما شاهدوه من مظاهر التقدم الصناعى والعلمى فى أوروبا وبخاصة التركيز على أحدث المخترعات ، ووسائل الرفاهية التى توافرها تلك المخترعات وتشجيع القائمين عليها ، وتيسير سبل الوصول إلى نتائج فرضياتهم وأفكارهم الجديدة .

وبين الرحالة العرب أن من الأسباب الأساسية للتقدم فى أوروبا عموما حسن النظام والتنظيم، وسيادة الأمن ، والشركات والجمعيات التى شكلت هناك ما يعرف

---

(١) زكى ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٥ – ٦٦ .

بدولة المؤسسات . أما فى نظرتهم إلى الحياة الاجتماعية : فقد وصف الرحالة العرب المجتمعات الغربية من خلال إعطاء صورتين أساسيتين حولها ، الأولى : إيجابية ، والثانية : سلبية .

ومن النواحى الإيجابية التى سجلوها عن المجتمعات الغربية ، الصدق والأمانة وتنظيم الوقت ، والعمل الدؤوب على مدار الساعة ، وأعطوا صفات إيجابية للمرأة الأوروبية منها : مساهمتها كالرجال فى مباشرة أعمالها ونشاطها ، وقد لمسوا آثار ذلك بصورة عملية فى كل مجالات الحياة والتقدم فى أوروبا ، وبخاصة أنها على قدر كبير من الثقافة والتعليم ، وتحصيل الفنون ، هذا فضلا عن الحديث عن الاستقرار فى المجتمع واحترام الناس بعضهم البعض وعدم التدخل فى شؤون الغير ، والأمن على الممتلكات واحترام المواعيد .

أما النواحى السلبية التى سجلوها عن المجتمعات الغربية فكانت ترتبط بشكل أساسي بالفكر العربى الإسلامى ، والعادات الموروثة عندهم ، فنظروا إلى الغرب من حيث عاداته وطبائعه وأخلاقه ، على أنها لا تصلح للمجتمعات العربية ، ورأوا أن فيها خطرا كليا وعظيما على تركيب وتكوين المجتمع العربى وأخلاقه وعاداته .

ولقد وصفوا مساوئ المجتمعات الغربية من حيث : تفكك الأسرة ، وعدم التدين، وانتشار الفساد الأخلاقى والفاحشة بين نساء أوروبا ، ويرجع هؤلاء الرحالة أسباب ذلك إلى أنها تتصل بسفور المرأة واختلاطها بشكل كبير بمجتمع الرجال هناك، نتيجة للحرية الزائدة فى نظرهم التى منحت لنساء أوروبا .

وانتقد الرحالة العرب طعام الأوروبيين لأنهم يأكلون الميتة والحيوانات المخنوقة .. هذا فضلا عن انتقادهم لما يحدث هناك من الانتحار ، والقتل فى داخل الأسرة الواحدة، مظهرين التفكك الأسرى بصورة واضحة ، كما انتقدوا عدم معرفة الجيران بعضهم البعض ، ووصفوا المجتمع القروى البعيد عن المدينة بالجهل وعدم المعرفة بما يحيط بهم وبالمعالم ، لكونهم غير متعلمين ، هذا فضلاً عن وصفهم الأوروبيين بأنهم يحبون الرياء ، وارتفاع الصيت ، وعدم استقرار المزاج .

وهكـــذا فقد لوحظ أن الرحالة العرب إلى الغرب لم يلاحظوا أى نقص عندهم تجاه هذه الحضارة المتفوقة ، لأنهم نظروا إليها على أساس أن هذا التقدم وهذا التفوق لم يكـــن بســـبب ميزات خاصة موجودة فى أهل أوروبا وحدهم ن بل نتيجة للجد والرغـــبة فى الـــتقدم ، وأكدوا على أن البلاد العربية قادرة على اللحاق بهذا الرقى ، بنفس الطريقة ، مع توفير الوسائل الضرورية الأساسية .. لذلك فإنهم آمنوا بنفع هذه الحضـــارة الغربية للبلاد العربية ، فحثوا بنى جنسهم على الأخذ بها ، ولكنهم نبهوهم إلى أن هـــناك مساوئ فى الغرب عليهم تركها جانباً ، والابتعاد عنها ، لخطرها على المجتمع العربى الإسلامى وبنيته الخاصة التى ينفرد بها عن غيره من أمم الأرض .

* * *

الهوامش

(١) أبــو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربة ، العدد ٦٩ ، آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظــر فهيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .

(٢) الطهطــاوى ، رفاعــة ، تخليص الإبريز ن وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٨م ص ٣ . ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

المصادر والمراجع

١ – الباجورى ، محمد عمر

الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م .

٢ – بيرم التونسى ، محمد الخامس

صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥. ج فى ١ ، القاهرة ، ١٣١١هـ .

٣ – التونسى ، خير الدين

أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة ، بحاضرة تونس المحمية ، ١٢٨٤هـ .

٤ – زكى ، أحمد

السفر إلى المؤتمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ط١ ، ١٣١١هـ .

٥ – المؤلف نفسه

الدنيا فى باريس ، ١٩٠٠م .

٦ – سابا يارد ، نازك

الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة، مؤسسة نوفل ، ط١، بيروت، ١٩٧٩.

٧ – الشدياق ، أحمد فارس

الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، دار الوحدة ، ط١٢ ، ١٩٧٨ .

٨ – المؤلف نفسه

كشف المخبا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣هـ .

٩ – المؤلف نفسه

الساق على الساق فى ما هو الفارياق ، قدم له وعلق عليه: الشيخ نسيب وهيبة الخازن ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .

١٠ – الطهطاوى ، رفاعة

تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، طبعة ١ ، ١٩٥٨ .

١١ – الفاسى ، أبو جمال محمد الظاهر

الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق : الأستاذ محمد الفاسى ، رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧م .

١٢ – فهيم ، حسين

أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٩م .

١٣ – أبو لغد ، إبراهيم

انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة: محمود السمرة ، مجلة العربى ، العدد ٦٩ آب ١٩٦٤ (ص ١٣٢-١٣٨) .

١٤ – الوردانى ، على بن سالم الوردانى التونسى

الرحلة الأندلسية (١٩ سبتمبر ١٨٨٧م) تحقيق ودراسة : عبد الحكيم القفصى ، مجلة أوراق ، عدد ٥ – ٦ مدريد (١٩٨٢ – ١٩٨٣) ، ص ١١٥ – ١٣٠ .